

## بين الوطنية والأثمية

للأستاذ ساطع بك الحصري

مدير الآثار بالعراق

—>>><<<—

الوطنية من أهم وأقوى النزعات الاجتماعية المتأصلة في النفوس البشرية ، ومع هذا فهي لا تسلم من أعداء وخصوم ، يسمون إلى كسر قوتها وإزالة تأثيرها ... إنني سأحدث إليكم عن أهم أعداء الوطنية وأخطر خصومها ...

عند ما أقول « أعداء وخصوم » لا أقصد بقولي هذا « الأشخاص والأفراد » بل أقصد « الميول والنزعات » .. لا أقصد الأشخاص والأفراد الذين يعادون وطنهم ، ويخونون أمتهم .. بل أقصد الميول النفسية والنزعات الفكرية التي تماكس الدواعي الوطنية ، وتوجه العواطف والأعمال إلى اتجاه مخالف اتجاهها ...

إن أهم وأعم الميول النفسية التي تعارض الوطنية وتعاديها بهذه الصورة هي « الأنانية » ... لأنها توجه النفوس نحو المصالح والملاذات الدائبة ، وتحملها على تقديم هذه المصالح والملاذات على كل شيء .. في حين أن « الوطنية » — بمكس ذلك — تدعو إلى « الإيثار » و « التضحية » ، في سبيل الوطن والقومية .. إنها تطلب من كل شخص أن يحب وطنه ويخدم أمته بكل ما أوتي من قوة ، وأن يضحي بشيء كثير من راحته وهوائه في هذا السبيل ، حتى أنها تطلب منه أن يوصل هذه التضحية إلى درجة « بذل النفس والحياة » عند اللزوم ..

ولذلك نستطيع أن نقول : إن الأنانية تعمل على الدوام عملاً معاكساً لدواعي الوطنية ... فالوطنية لا تستطيع أن تنمو وتقوى دون أن تتغلب على الأنانية المعادية لها

غير أن الأنانية لا تعادي النزعة الوطنية وحدها ، بل تعادي جميع الفضائل والنزعات الأخلاقية ، على اختلاف أنواعها .. فكسرة قوة الأنانية ليس من الأمور التي تتطلبها النزعة الوطنية وحدها ، بل هو من الأمور التي تتطلبها سائر النزعات الأخلاقية بأجمعها

فنستطيع أن نقول لذلك : إن خلال النضال النبيل الذي

يحدث بين الوطنية والأنانية لا تبقى الوطنية بدون أنصار ... بل إنها تجد لنفسها عدة أنصار من سائر النزعات الأخلاقية التي تشترك معها في « النضال » ...

\*\*\*

غير أن هناك بعض النزعات التي تعادي الوطنية دون أن تماكس سائر الفضائل الأخلاقية ؛ فالوطنية لا تجد لنفسها أنصاراً من تلك الفضائل خلال مناضلة مثل هذه النزعات ، فتتحمل أعباء هذا النضال بمفردها بطبيعة الحال أما منشأ هذه النزعات المعادية للوطنية فهو الآراء والمذاهب الفلسفية والاجتماعية التي تعتبر الوطنية من « النزعات البالية المضرّة » فتدعو الناس إلى نبذها والتخلص منها

لعل أقدم هذه الآراء والمذاهب هي الفكرة التي تعرف في بلاد الغرب باسم ال « كوزموبوليتية » cosmopolitisme بمعنى « مواطنة العالم » — أو بتعبير أقصر « العالمية » — هذه الفكرة تدعو الناس إلى الترفع عن « النزعات الوطنية الخاصة » وتطلب إليهم أن ينزعوا إلى « حب العالم » دون أن يفرقوا بين مختلف الأوطان

أما الملاحظات التي تستند إليها « فكرة العالمية » فيمكن أن تلخص بهذه الكلمات :

ما الفرق بين الأوطان المختلفة ؟ ألم تكن كلها من أجزاء الأرض التي نعيش عليها ؟ وما قيمة الحدود التي تفصل الأوطان بعضها عن بعض ؟ ألم تكن كلها من الأمور الاعتبارية التي أوجدتها الوقائع الحربية أو المناورات السياسية ؟ وما الفرق بين الأمم المختلفة ؟ ألم تنحدر كلها من أصل واحد ؟ أفلا يجدر بالإنسان — وهذه هي الحال — أن يسمو بأفكاره وعواطفه فوق الأوطان وفوق الأمم ، فيعتبر الأرض بأجمعها « وطناً » كما يعتبر أبناء البشر بأجمعهم « مواطنين » ؟

لقد مر — في الحقيقة — في تاريخ حياة البشرية عهوداً طويلة ، كانت فيها « الرابطة الوطنية » ضيقة محدودة لا تمتد نطاقها أسوار بعض المدن . كما كانت فيها الرابطة القومية محدودة المدى ، لا تتجاوز تأثيرها حلقات بعض القبائل . فقد شهد التاريخ « الدور » الذي ارتفعت فيه الحدود من بين المدن التي

تتفق — في النتيجة — مع روح الاستكانة السلبية ، وتكتسب لذلك قوة من ميول الأناية الخفية ...

لأن «فكرة الانسانية والمالية» نزعاً أفلاطونية ، لا تتطلب من الفرد عملاً فورياً وتضحية فعلية ، في حين أن الوطنية نزعاً واقعية تتصل بالحياة الحالية ، وتتطلب من المرء أن يقوم ببعض الأعمال والتضحيات بصورة فورية ؛ فالانصراف عن النزع الوطنية ، استناداً إلى «الفكرة الانسانية» يكون بمثابة الانصراف عن الأعمال الإيجابية استكانة إلى الأوضاع السلبية .. ولهذا السبب يتفق هذا الانصراف اتفاقاً كبيراً مع روح الأناية ، التي كثيراً ما تتفتّح بأقنعة خداعة تستر وراءها كثيراً من الميول النفعية ...

لقد اتّبه «جان جاك روسو» إلى هذه الحقيقة ، فانتقد «الفكرة المالية» بأسلوب لاذع ، فقال : «إن بعض الناس يحبون أبناء الصين ، لكي يخلصوا من الواجبات الفعلية التي تترتب عليهم من جراء حب أبناء وطنهم الأقرين»

وعلى كل حال يمكننا أن نقول : إن فكرة «المالية» انتشرت في القرن التاسع عشر انتشاراً كبيراً بسبب تشوق المفكرين إلى الكمال الخيالي من جهة ... ويدافع ميل الناس إلى التخلص من ثقل الواجبات الفعلية من جهة أخرى

وهذا الانتشار صار عظيماً في البلاد الألمانية بوجه خاص ؛ أولاً : لموافقة الفكرة لروح الفلسفة السائدة بين مفكرى الألمان عندئذ ، وثانياً : لعدم اصطدامها هناك بنزع وطنية قوية بسبب انقسام الألمان إلى دويلات كثيرة ، واشتباك منافع هذه الدويلات وأصرامها اشتباكاً يحول دون نمو النزعات الوطنية والقومية نمواً سريعاً ... إننا نجد في إحدى الكلمات التي كان قالها المفكر الألماني «شله يجل» دليلاً قاطعاً على ما أسلفناه ؛ فقد قال : من المبعث أن نحاول تكوين أمة ألمانية ، فالأجداد بنا أن نأخذ بالفكرة المالية ، ونخدم الإنسانية ...

واستمر الحال في البلاد الألمانية على هذا المنوال حتى غزوة نابليون وهزيمة «يه نا» ...

ولا شك في أن الانهزام الهائل الذي منى به الجيش البروسي في واقعة «يه نا» كان من أبرز نتائج ضعف النزعة الوطنية

كانت متحالفة ، وانتفت فيه الضمائم من بين القبائل التي كانت متعادية ... فتوسعت فيه فكرة الوطنية والقومية إلى ما وراء حدود المدن ونطاق القبائل ، فوصلت إلى الحدود التي نشاهدها في الحالة الحاضرة . إن سلسلة التطورات التي حدثت بهذه الصورة إلى الآن ، تدل على أن هذا التوسع سيستمر على الدوام ، فسيأتي يوم تندمج فيه الأوطان المختلفة بعضها في بعض ، إلى أن يصبح «العالم» «الوطن المشترك» لكل الناس ، كما تتمزج فيه الأمم المختلفة بعضها ببعض إلى أن تصبح «الإنسانية» بمثابة «القومية المشتركة» بين جميع أبناء البشر . وأما «النزع الوطنية» التي نعرفها الآن فستزول حتماً بتقدم البشر وتساوى المواطنين ، وستترك محلها لمعاطفة إنسانية ، وأخوة شاملة ... فيجدر بالمفكرين أن يسبقوا سائر الناس في استقبال هذا التطور الجديد ، فيسموا بأنفسهم — من الآن — فوق الوطنيات الخاصة ويعملوا بهذه الصورة على تعجيل حلول عهد الإنسانية الحق ... هذه هي سلسلة الآراء والملاحظات التي تستند إليها فكرة «الكوزموبوليتية» ، «فكرة المالية» ...

لا شك في أن هذه الآراء لا تخلو من قوة جذب وإغراء ؛ لأنها تفسح أفهام الأذهان مجالاً واسماً لأحلام الأخوة البشرية وأمان في السلم الدائم ، وتصور أمام الخيال عالماً جديداً أرقى وأسمى من العالم الذي نعيش فيه الآن ... فن الطبيعي أن تستولى هذه الآراء — من الوهلة الأولى — على بعض النفوس التواقفة إلى الكمال ، ولو كان في الخيال ...

فقد انتشرت الفكرة — فعلاً — انتشاراً كبيراً بين المفكرين في النصف الأخير من القرن الثامن عشر ... ولا سيما في ألمانيا ، وحيث أصبحت النزعة السائدة في عالم الفكر والفلسفة .. فكان معظم الفلاسفة والأدباء — من كونه إلى لسينغ ، ومن هررد إلى شلينغ — يقولون بها ويدعون إليها ؛ فكان «كونه» — مثلاً — يترفع عن النزعة الوطنية ، ويقول «وقانا الله بإياها» ، وكان «هررد» يعتبر الوطنية «من النزعات التي لا تليق بالسنتيرين والمفكرين» ...

ومما يجدر بالانتباه والملاحظة أن هدم النزعة الفكرية — مع انحداؤها في الأصل من روح التشوق إلى الكمال —

وانتشار الفكرة العالمية... فإن الجنود كانوا ينهزمون من ساحة القتال تاركين أسلحتهم فيها دون أن يحاولوا استمالتها لصد غارة العدو الزاحف إلى بلادهم

غير أن كل ما حدث بعد ذلك بدد الأحلام العائنية والأمانى الإنسانية التي كانت مستولية على النفوس... وأظهر لكل ذي عين بصيرة الفروق الهائلة بين « الوطن » الذي ينتسب إليه وبين غيره من الأوطان... وبين « الأمة » التي ينحدر منها وبين غيرها من الأمم...

فإن الذين كانوا انهزموا من ميدان القتال دون أن يستعملوا أسلحتهم لصد غارة الجيوش الأجنبية اضطروا - بعد بضع سنوات من تاريخ الواقعة - إلى الانخراط في سلك الجيوش المذكورة ليعتدوا مأرب قائدها الخاصة... إنهم أرغموا على التجنيد وعلى العمل تحت إمرة قواد فرنسيين ليحاربوا - رغم أنوفهم - الدول والأمم التي أراد زعيم الفرنسيين الاستيلاء عليها دون أن يكون في كل ذلك أدنى مصلحة لهم ولوطنهم الخاص ولأمتهم الحقيقية...

وهكذا قد شاهد مفكرو الألمان بأعينهم أنه بينما كانوا يظنون في أحلام الإنسانية والعالمية استولت على بلادهم جيوش أمة بعيدة عن تلك الأحلام، ومتشعبة بروح الوطنية بأشد وأحد أشكالها، فأخذت تلك الأمة تسيطر عليهم وتستعبد لهم، وتذيقهم أنواع الدل وتسوقهم إلى حيث تريد...

فكان من الطبيعي أن تنقلب الآراء والذرائع في ألمانيا انقلاباً هائلاً تحت تأثير الدروس القاسية التي ألقيها هذه الوقائع والنكبات.. وفي الواقع لم يحض على واقعة « يونا » مدة طويلة، حتى تركت الفكرة العالمية محلها لحاسة وطنية شديدة ويقظة قومية جبارة... وهذه الحاسة الوطنية واليقظة القومية هي التي أدت إلى نهضة بروسيا المملوكة، وخلصتها من نير الفرنسيين ثم قادت الأمة الألمانية بأجمعها نحو الاستقلال والوحدة والقوة والمظلة...

ومن المفيد لنا أن نتبع هذا التطور العميق فيما قاله وكتبه البعض من مفكري الألمان أنفسهم في ذلك العهد.. أود أن أذكر لكم مثالين بارزين: أحدهما من الحكماء وهو « فيخته »

والثاني من الشعراء وهو « آرت »

عند ما يذكر اسم - فيخته - في ألمانيا، يتبادر إلى الأذهان الخطب الحماسية التي وجهها « إلى الأمة الألمانية » خلال أيام النكبات التي بحثنا عنها، تعتبر هذه الخطب من أهم عوامل النهضة في ألمانيا، ومن أقوى موجبات القومية فيها...

أنتى فيخته خطبه الأربع عشرة في مدرج جامعة برلين، عند ما كانت الجيوش المحتلة تقوم باستعراضات متوالية في شوارع العاصمة البروسية وميادينها... تحتوى هذه الخطب على نظرات فلسفية في تاريخ حياة الأمة الألمانية، وأبحاث شيقة عن الحيوية الكامنة فيها وعن وسائل التربية التي تكفل تجديد حياتها... وكل هذه النظرات والأبحاث ترمى إلى غاية واحدة، هي استنهاض المهمل في سبيل بث الأمة الألمانية، وإعادة بناء مجدها.. إن خطب فيخته تنم عن روح وطنية متأججة، وتدعو إلى نزع قومية متعصبة، ولا سيما الخطبة الختامية، فإنها تعتبر آية من آيات التحميس والاستنهاض. بوجه « فيخته » في خطبته هذه بعض الكلمات إلى الشباب، ثم إلى الكهول، ثم إلى رجال الدولة والمفكرين والأدباء، وأخيراً الأمراء، مصدراً كل واحدة من هذه الكلمات بقوله: « إن خطبي تستحلفكم وتبتهل إليكم... »

بعد ذلك يضطرم حماسه، فيقول لجميعهم: « إن أجدادنا أيضاً يستحلفونكم مى، ويضمون صوتهم إلى صوتى ( ويأخذ في تصوير صوت الأجداد ) بأسلوب حماسى جذاب. ثم يعقب ذلك بقوله: « إن أخلافكم أيضاً يتضرعون إليكم ». ويشرح صوت الأخلاف بأسلوب مؤثر خلاب

وأخيراً ينهى الخطبة بكلمات تدل على شعوره بفرور قوى عميق: «... ولو تجاسرت لأضفت إلى كل ما تقدم قائلًا: إن القدرة الفاطرة أيضاً تستحلفكم وتستنهضكم... لأنه لم يبق على وجه الأرض أمة حافظت على بذور قابلية التكامل البشرى بقدر ما حافظت عليه أمتكم المجيدة... فإذا سقطت الأمة الألمانية سقط معها الجنس البشرى بأجمعه، ولا يبقى له أدنى أمل في السلامة... »

سالم الحصرى

( يتبع )